من الحجج السياسية، والتاريخية، والدينية، التي استند اليها المشروع الصهيوني، كي يكون في استطاعته الجزم بأن انشاء اسرائيل، في العام ١٩٤٨، كان السبب الأساس الذي أدى إلى دفع المنطقة الى متاهة النفق المظلم الذي لا تزال تتخبط داخله حتى الآن[١]. ومن هذه الزاوية، يبدو أن تتابع الأحداث قد صادق على صحة ما كتبه المفكر والسياسي اللبناني، نجيب عازوري، في بداية القرن الحالي، حول طبيعة المأزق الذي سيؤول اليه الصراع العربي ـ الصهيوني، بوصفه صراعاً بين مشروعين ايديولوجيين كانا قيد التحقق خلال تلك المرحلة، حيث نبّه عازوري، في مستهل كتابه المعروف «يقظة الأمة العربية»، إلى وجود «ظاهرتين هامّتين متشابهتي الطبيعة، بيد أنهما متعارضتان... تتضحان في هذه الآونة في تركيا الآسيوية، أعني: يقظة الأمة العربية وجهد اليهود الخفي لاعادة تكوين مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع. ومصير هاتين الحركتين هو أن تتعاركا باستمرار حتى تنتصر احداهما على الأخرى...»[٢].

ولقد أصبحت قصة الملابسات، التي أفضت إلى ولادة اسرائيل معروفة ومكررة. وإذا أبعدنا أثر المداخلات الدولية التي أتاحت تنفيذ هذه الخطوة، يمكن النظر إلى نشوء اسرائيل على أنه حصيلة جهود حثيثة بذلت من أجل تحقيق مشروع ايديولوجي بعيد الاصول، يرمي، حسب أهدافه المعلنة، إلى انشاء «وطن قومي» يستدرج الشتات اليهودي الموزع في مختلف أرجاء الأرض. والواقع، انه منذ ان رست مناقشة البدائل المقترحة على اختيار فلسطين كمكان لاقامة الدولة اليهودية المقبلة، كان على منظّري المشروع الصهيوني مواجهة مشكلة سياسية ملحّة تتعلق بمستقبل «السكان الأصليين» الذين يقطنون أرض «الدولة المنشودة». ويظهر، الآن، ان منظّري الأيديولوجية الصهيونية اختاروا الحل الأسهل لهذه المشكلة وهو انكار وجود هؤلاء السكان، واسناد مشروعية المشروع الصهيوني الى ركيزة المعادلة القائلة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض».

أمّا على المستوى العملي، فان البرامج التنفيذية التي رسمت، منذ تلك الفترة، حول آلية تحقيق المشروع الصهيوني تكشف عن حقيقة أن أسطورة «الأرض الخالية» لم تكن ناتجة عن جهل فعلي بواقع الحال القائم في فلسطين قدر ما كانت توليفة مصاغة ومصمّمة على مقياس الحاجة إلى تأكيد «سلامة» المشروع الصهيوني من الوجهة الأدبية. فضمن هذا المستوى العملي، أظهرت القيادة الصهيونية جدية أكبر في تعاملها مع مشكلة السكان الأصليين؛ وهكذا، فقد كان ثيودور هرتسل واضحاً مع نفسه حين أكد، في يومياته، ضرورة القيام بعمليات شراء واسعة للأراضي الفلسطينية من كبار الملاّك، لقاء أسعار سخية، والقيام، في الآن عينه، بتنفيذ برنامج شامل يعوّل في تطبيقه على «عملائنا السريين» ويهدف إلى «تشجيع السكان المعدمين على عبور الحدود، بعد أن تسدّ في وجوههم مجالات العمل والاستخدام»[٣]. وفي كل الأحوال، فان انكار الهوية القومية للشعب الفلسطيني بقي، على الدوام، أحد الثوابت الأساسية التي بني عليها المشروع الصهيوني، وذلك على الرغم من أن قادة الحركة الصهيونية اضطروا، خلال المداولات الدولية التي اشتركوا فيها من أجل وضع المشروع الصهيوني على سكة التنفيذ، الى القبول ببعض الاشارات الغامضة بشأن الحفاظ على «الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية الموجودة في فلسطين»، كما ورد في «تصريح بلفور» مثلاً.

لقد كانت منافسة الشعب الفلسطيني على أرضه كافية وحدها لكي تحدد اطار الصراع، بوصفه مواجهة بين طرفين ينفي احدهما الآخر. إلّا أن مأزق الصراع لم يقف عند هذا الحد وحده؛ إذ أن هذا المأزق ازداد عمقاً بحكم كون كل من هذين الطرفين ينتميان إلى مشروع ايديولوجي أكثر طموحاً من متطلبات احتياجاتهما الفعلية إلى الأرض. فالأساس في الموقف العربي من انشاء اسرائيل هو